نحو نهضة عربية ثانية: الضرورة والمتطلبات(*)

اسماعيل صبري عبد الله

مفكر عربي من مصر ورئيس الجمعية العربية للبحوث الاقتصادية.

أولاً: المقصود بالنهضة

تكاثرت الغمم على أمتنا حتى تكسرت النصال على النصال وخبا أكثر من شعاع علّقنا عليه الآمال في فترة أو في أخرى، وزاد بيننا الاحساس بالإحباط، ولا أقول اليأس. وتعدّدت الأفكار التي تطرح عبر لقاءات متعددة وندوات ومؤتمرات بين المهتمين بمستقبل هذه الأمة. وإن كانت في رأيي قد غلب عليها طابع المداخلة الجزئية من ناحية، ومن ناحية أخرى التعلق البسيط بصيغ مجردة لها نبلها ولا شك. ولكن لم تنل من تفكيرنا ومن جهدنا ما ينبغي لكي تتحول إلى قوة تغيير حين تلتقي مع تطلعات شعوبنا وتستمد قوّتها من قوة هذه الشعوب. ومن ثم كان فكري الذي اتجه نحو مفهوم النهضة باعتباره مفهوماً شاملاً وباعتباره جهداً ذاتياً نملكه ولا يستطيع انسان أن يحرمنا منه.

وأعني بتعبير النهضة هبة مجتمعية تسعى إلى إكساب الحضارة القومية قدرتها على انتاج المعارف والمهارات في تعامل متكافىء مع الحضارات الأخرى. فقد شهد العالم حضارات كثيرة، ومعظمها اندثر وقليل منها ما بقي. وتحيا الحضارة أو تندثر بقدر ما تملك من وسائل انتاج المعارف والمهارات. هذا هو المعيار الحقيقي للحضارة التي تعيش والتي تستطيع أن تتعامل مع غيرها معاملة متكافئة لا تابعة. نحن نسمع كثيراً من الأقوال ضد الغرب وضد الحضارة الغربية ورفض كل ما هو غربي. الحضارة لا تبنى على الرفض أو النفي. ولكن تبنى على الابداع والنهوض واثبات أننا ند لهذه الحضارة ولسنا تابعين لها. أما القطيعة فلا تؤدي إلى شيء. ولهذا أرفض ابتداءً ما قال به بعض الأخوة المثقفين من أن حتى تعبير النهضة نفسه تعبير مستعار من

(*) في الأصل محاضرة القيت بدعوة من مركز دراسات الوحدة العربية، في دار الندوة، في بيروت في ١٩٩٢/٣/١٩.

الحضارة الغربية. ذلك أن في مفهوم النهضة التاريخية في أوروبا درساً هاماً يجب أن نستوعبه. فما سمّي في أوروبا قبل خمسة قرون أو ستة بالدقة الميلاد الجديد Renaissance وسميناها نحن النهضة كان جوهره التخلص من عدة قرون من التدهور والتخلف والسعي إلى الوصل المباشر بين حضارة الاغريق والرومان باعتبارهما حضارتين أوروبيتين، وبإبداع فكري وعلمي وفني وديني جديد حتى تتصل الخطى وتتخلص تلك الشعوب من عوامل الهبوط والانحطاط. ونحن نواجه، وللمرة الثانية هذه الضرورة. نواجه ضرورة أن نعزل داخل تراثنا، الخبيث عن الطيب، وأن نتلمس كيف ازدهر العرب، ولكن أيضاً ندرس كيف تدهور العرب، وما أسباب التدهور. وعلينا، مستندين إلى ما أثبتته أمتنا من قدرة على بناء الحضارة، أن نبني من جديد حضارة.

وأسميت هذا النهضة الثانية لأن بلادنا شهدت نهضتها الأولى التي استمرت من أواسط القرن التاسع عشر إلى أواسط القرن العشرين. نهضة قام بها الناس وليس الحكومات. فنذكر حركة الترجمة وحركة التأليف ونشأة الصحافة العربية، وظهور المسرح العربي وفن الرواية، وظهور الفن التشكيلي العربي الحديث، والاهتمامات التي انعكست في تكوين عدد من الجمعيات العلمية، وكذلك الاهتمام بالتعليم وما بذلته الهيئات غير الحكومية في نشر التعليم في مصر التي كانت تاريخياً بسبب الاحتلال البريطاني تحدّ من الإنفاق المباشر على التعليم. ونشط الناس في تأسيس جمعيات وانشاء مدارس اضافية تعويضاً جزئياً عن قصور التعليم الحكومي عن استيعاب الراغبين في العلم.

وظهر أيضاً في تلك الفترة مفكرون كبار جمعوا بين الثقافتين: الثقافة التراثية والثقافة المعاصرة، وانكبّوا على دراسة تاريخنا الحضاري بمناهج علمية حديثة أظهرت عناصر القوة وعناصر الضعف. والمرء في غنى عن ذكر الأسماء الكثيرة المجيدة المعروفة.

الأمر المؤسف أنه بعد أن حصلنا على استقلالنا السياسي، انشغلنا بأمور أخرى بعيدة عن النهضة. انشغلنا بالصراع على السلطة، وأساساً بالأساليب غير المشروعة واستخدام القوة. انشغلنا أيضاً بالتأثير في السلطة كتأثير مباشر متخطين ضرورة التأثير في الناس وتكوين الرأي العام. ونشطت السلطة وتمددت بيروقراطيتها، وازداد دورها شأنها شأن السلطة بصفة عامة، والسلطة المغتصبة بصفة خاصة، في التضييق على الفكر والمفكرين.

ومن ناحيتنا كمفكرين ومثقفين أيضاً، كانت علينا مسؤولية في هذه الفترة. فقد تبنينا شعارات تعكس أهدافاً عزيزة وثابتة ودائمة كالحرية والاشتراكية والوحدة. ولكن غلب علينا الظن أن مثل هذه الاختيارات المجتمعية يمكن أن تحدث بالفعل بمجرد الحصول على القرار السياسي بتبنّي الاشتراكية والنضال من أجل الوحدة أو بمعاهدة تُعقد بين قطرين عربيين. وتوهمنا أيضاً أنه، حتى إذا نجحنا في تحقيق أي هدف من الأهداف الكبرى، فإن تحقيق هذا الهدف بذاته كافٍ لحلّ كل مشاكل المجتمع بعد ذلك. وبذلنا الجهد الكبير في مناظرات ومناقشات ومقالات ومؤلفات حول ترتيب الأولويات بين الأهداف الثلاثة، أو حول ما هو اشتراكي حقاً وما ليس اشتراكياً، أو حول المسعى الوحدوي وعلاقته بالمسعى الاجتماعي، كما لو كنا فعلاً نحلّ قضايا الوطن بهذا النقاش الذي له احترامه وله وجهاته، ولكنه استوعب في تقديري جهداً كبيراً حُرمت منه مجالات أساسية كان يجب أن تكون موضع اهتمام.

ثانياً: بعض مظاهر تخلّف الفكر

ومن ثم ليس غريباً أن سادت في عصرنا هذا في بلادنا العربية مظاهر للتخلف الفكري، وأستئذنكم في أن أذكر بعض هذه المظاهر:

١ ـ ماضوية التفكير الثقافي العربي المعاصر

فكلما اجتمعنا في ندوة أو فتحنا حواراً نجد الكتّاب منشغلين بتصفية حسابات الماضي أكثر من انشغالهم بقضايا الحاضر، وبعيدين كل البعد عن تأمل قضايا المستقبل. وكأن العالم سيقف ثابتاً لا يتحرك حتى تحلّ الأمة العربية مشاكلها ثم تستأنف البشرية جميعاً سعيها.

هذا البعد ذو المدلول العميق للزمن، من حيث هو فعل وحركة وتغيير، لم يتضح لنا كل الوضوح. فالزمن ليس مجرد ساعات وأيام، ولكنه أحداث تتوالى وتغييرات تتجدد، ولكن وعي هذا لم ينل اهتمامنا إلا في أضيق الحدود.

٢ ـ التغنّي بالقديم

فنجد الكلام المكرر عن أننا أمة عظيمة وعلماءنا وفلاسفتنا علّموا أوروبا قبل ٧٠٠ عام. ونحن من ابتدع علم الجبر وعلم البصريات... وهذا التغني بالماضي مظهر غير صحي لأنه يصرفنا أو يُستخدم لصرفنا عن النظر في تخلّفنا الحالي. من هم الذين أنتجناهم في العصر الحديث من الفلاسفة والعلماء الذين يُعتدُّ بهم؟ ومن منهم حافظنا عليه وبقي على الأرض العربية؟ ومن منهم استكمل ازدهاره في أقطار أخرى؟ هذه هي القضايا الحقيقية التي يجب أن تشغلنا. ويقابل هذا التغني الممل إهدار فترة التخلف العربي الاسلامي، وبالتالي تجاهل الأسباب الفكرية والواقعية التي أدت بنا إلى السقوط في يد الأتراك العثمانيين أولاً، ثم الاستعمار الغربي في ما بعد. وهذا التجاهل ضارّ للغاية. لأن معرفة تلك الأمور ضمان لا بد منه إذا أردنا ألّا تتكرر في الحاضر. وكثير مما نسمعه على الساحة يمكن ردّه إلى تقصيرنا في دراسة تاريخنا وتراثنا بالتغني بالأمجاد فقط. لقد بلغت الحضارة العربية الاسلامية الذروة في القرن الرابع الهجري/ العاشر ميلادي. وأقول إنها دخلت مرحلة التخلف في نهاية القرن الخامس عشر ميلادي حين سيطر العثمانيون على المشرق وانتهى الوجود العربي في الأندلس، في الوقت الذي كانت أوروبا تكتشف فيه العالم الجديد. وفي هذا الوقت أحرقت أعمال ابن رشد في حين نشأت في جامعة باريس مدرسة فلسفية كاملة اسمها المدرسة الرُشدية. فما كان باقياً بيننا من فكر جدير بالاحترام استفاد منه غيرنا. أما نحن فقد انكفأنا على أنفسنا، وقفلنا باب الاجتهاد في الفقه ورفضنا الفلسفة وتقبّلنا كثيراً من أشكال الشعوذة والتمسح بالأولياء، وبالدقة طبقنا في بلادنا ما كان سائداً في العصور الوسطى في أوروبا حيث كان الفكر الغالب أن الفقراء أحباب الله وأن الأغنياء فسقة سيذهبون إلى الجحيم. فبالتالي، الفقر نعمة لأنه يدفع إلى الجنة. لقد ازداد اهتمامنا بالآخرة أكثر من اهتمامنا بالدنيا ونسينا القول المأثور «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً».

هذا الوضع خلّف لنا آثاراً ما زلنا نعاني منها، وضاعف من خطر هذه الظاهرة أن انتشار التعليم الحديث في بلادنا بصفة خاصة أخذ طابع الازدواجية مع ما يسمّى التعليم الديني. فمن تربّوا في مصر عندنا، مثلاً، في مدارس الحكومة ثم الجامعة، معلوماتهم عن التراث العربي

الاسلامي في غاية المحدودية. وبالتالي يمكن أي طرف يحاول أن يستغل الاسلام للوصول إلى السلطة أن ينسب إلى الاسلام ما يشاء، ولا نملك عادة امكانية الرد عليه. ولو كنا درسنا هذا التراث الدراسات المطلوبة لتكرر عندنا مؤلفون مثل أحمد أمين واسلامياته، ولكان في وسعنا أن نهتم ببحث لماذا تدهور العرب بعد مجدهم؟ لأن التدهور بدأ عندنا.

٣ ـ التعلق بالأوهام

لماذا تدهورنا وكيف نخرج من هذا التدهور؟ كيف نجعل هدفنا احياءً جديداً لهذه الحضارة ونشتغل بقضايا العصر ونتخلص من الأوهام، التي تزدهر في العادة عند الإحباط. إن النظرة السلفية إلى الأمور منتشرة. فالسلفية ليست قاصرة على الحركات الاسلامية. بل إن أغلب الحركات السياسية في الوطن العربي لها طابع سلفي. الماركسيون سلفيون ويبكون اليوم انهيار النموذج «وخيانة» غورباتشيف... الخ. ولا أقول ذلك تخلصاً من فكري الماركسي فما زلت عليه. ولكن هؤلاء أساءوا إلى ماركس لأنهم تعلقوا بالماضي، تعلقوا بفكرة نموذج واحد قابل للتكرار في أي مكان وزمان، وهي فكرة منافية تماماً لجدلية الماركسية وقولتها المشهورة «إنك لا تستحم في البحر نفسه مرتين». فأي تجربة لها خصوصيتها ولها ظروفها، ولكن الناس اقتنعت بما قرأت في الكتب وقنعت به بدلاً من أن تتلمس من ارتباطها الحي بالشعوب حركة خلّاقة تجدد شباب المجتمع. وكان للسلفية أيضاً صدى في التيار القومي.

نحن عشنا أكثر مما ينبغي متأثرين بتجربة الوحدة الايطالية والوحدة الالمانية. وظل في أعماقنا تطلّع إلى بسمارك ليوحّد هذه الأمة بالقوة. وتوهمنا أن تحقق الوحدة سيحلّ كل المشكلات. ونسينا أن هذا تم في عالم غير العالم الذي نعيش فيه. وأن الوحدة الالمانية تمّت في منتصف القرن الماضي وفي ظروف معينة كانت تحكم أوروبا في ذلك الوقت بل والعالم كله، ونحن في ظروف أخرى. فإذا كنا نريد الوحدة، وأنا ممن يحرصون عليها، يجب أن نتلمّس لها أسباباً جديدة (التنمية المستقلة المتكاملة) ووسائل جديدة (الديمقراطية وحركة الجماهير) وألا نجعل من القهر ثمناً للوحدة.

وليست السلفية وحدها، رغم خطورتها عندما يربطها البعض بالدين، مصدر الأوهام. فأولئك الذين يقولون إن محاكاة الغرب في كل شيء، وبأسرع ما يمكن حتى تتحقق الحداثة في مجتمعاتنا، يتعلقون بأوهام لا سند لها في الواقع. وبصفة عامة، ليس البحث عن صيغة سحرية تغيّر المجتمع فوراً بمجرد تبنّيها كهدف إلا وهماً بعيداً. ولهذا كله، اعتقد أنه قد آن الأوان أن نبدأ بالانسان العربي وأن نعمل على أن يسترد هذا الانسان العربي انسانيته. وأن يكتسب القدرة على التعلّم والتقدم حتى يتمكن المجتمع كله من النهوض من حالة السبات التي تكاثرت فيها الكوابيس. ودون أن أعطي الجانب الاقتصادي تحيّزاً خاصاً، أقول إن النهضة مطلوبة لكي نحقق تنمية شاملة للمجتمع العربي من أقصاه إلى أدناه. ومعنى شمول التنمية أنها ليست نماءاً اقتصادياً صرفاً، ولكنها تنمية تشمل الأوضاع الثقافية والاجتماعية في المقام الأول. ونتكلم بالألفاظ الشائعة في وسائل الاعلام عندنا التي نرددها دون أن ندرك مقتضياتها، فنشير إلى أهمية الجانب العلمي والتقاني في أي مجتمع يريد أن يعيش في ظروفنا الحاضرة. من كل هذه الاعتبارات أحسست بالحاجة إلى نهضة عربية ثانية تشمل كل جنبات المجتمع العربي وتضع الانسان العربي البسيط والعادي في قلب اهتماماتها وفي المكان الذي يشغله هذا الزعيم العربي أو ذاك. وإذا أردنا أن

ننهض، يجب أن نفكر في الناس كأفراد عاديين وليس في الزعماء والقيادات. فالمجتمع الذي يتطور فيه الانسان قادر على إبراز القيادات التي يستحقها، والعكس ليس صحيحاً.

لا يوجد قائد يستطيع أن يصنع أمة. لا يمكن أمة أن تتكون إلّا لأن غالبية الناس أرادت لها أن تكون وارتبطت بها وأحست بانتمائها إليها وأحسّت بأن هذا الانتماء يجلب لها الخير. دون هؤلاء الأفراد لا تُصنع الأمم. فلا بد، إذن، من تنمية شاملة. ويعني هذا أن نتنبه، ضمن ما نتنبه إليه، إلى أن العالم اليوم أعاد اكتشاف الانسان كعنصر حاسم في التنمية. وظهر مفهوم التنمية البشرية، وتأكيد أن البشر هم صانعو التنمية والذين يجب أن يكونوا المستفيدين منها. إن أحدث كمبيوتر في العالم يظل جثة هامدة إذا لم يجد الفريق القادر على استخدامه. فالإنسان هو الأصل، وهذا الانسان يجب أن يكون مركز اهتمام عملية التنمية. ومن هنا، صار الحديث عن أهمية توفير الصحة والغذاء والتعليم والتدريب والحرية الشخصية والمشاركة السياسية. لأن هذا الانسان السليم البدن والعقل المتعلم والقادر على التعلم، الذي يألف حديث العلم وحكم المنطق ودور العقل ويمارس منتجات العلم الظاهرة في شكل تقنيات، هو الذي يستطيع أن يبني أمة تزدهر في القرن الحادي والعشرين. وبغير هذا الانسان لا يمكن أي تقدم أن يطّرد.

من ثم، أقف عند هذا الحد من عرض ضرورات النهضة وأكرر أن النهضة هبة اجتماعية، أي تعني الناس جميعاً وأن كل فرد منا عليه مسؤولية في خدمة قضية النهضة. هي ليست قضية حكومات، وليست قضية نظم سياسية في المقام الأول. وأذكّر بما قلته أنه نشطت حركة النهضة في ظل ظروف سياسية لم نكن فيها مستقلين. ومن التناقض العجيب أن تتراجع النهضة في ظل الاستقلال. علينا أن نسترد صوابنا وأن نحكّم العقل في أمورنا وأن نصنع به نهضة تجعل هذا المجتمع قادراً على أن يوحد نفسه وأن يشيع الديمقراطية في أرجائه، وأن يضع العدل الاجتماعي في رأس اهتماماته.

ثالثاً: متطلبات النهضة

في رأس هذه المتطلبات أو المقتضيات التطوير الشامل لنظم التعليم القائمة حالياً. يجب ألا نخدع أنفسنا وأن نسلّم بأن التعليم في أقطارنا العربية قد تدهور في الفترة الأخيرة. هذا أمر وارد على الأقل بالنسبة إلى مصر التي أتابعها وإلى كل الأقطار العربية، كما يظهر في دراسات كثيرة. فالشكوى عامة، وليس السبب كثرة الطلاب، فإذا كثر الطلاب، فلنكثّر المعلمين وهي مسألة غير مستحيلة. لكن النظرة إلى التعليم التي يجب أن تتحول من مجرد نظرة إلى توفير الحراك الاجتماعي وترك العمل اليدوي للاشتغال بعمل ذهني أو تحسين الدخل إلى تنمية قدرة الدارس على التعلم الذاتي والرغبة الدائمة في زيادة معارفه وتنويع مهاراته. فنحن في عالم أصبح من سماته أن يغير المواطن مهنته مرتين أو ثلاث مرات في حياته. فإذا لم يكن لديه هذا الاستعداد للتغيير والتعلم من جديد، تنقص كفاءته. ولم يعد الآن أيضاً في العالم شهادة بأن الإنسان قد أكمل تعليمه مرة وإلى الأبد. فمعدلات التطور العلمي من السرعة بحيث أن المهندس أو الطبيب أو المختص في علم الأحياء مواجه بتغييرات شبه كاملة في المتوسط مرة كل خمس سنوات. ومن ثم لا بد أن يستأنف التعليم عندنا تنمية الرغبة في التعلّم وأن نسترد من سلفنا الصالح الكلمة الجميلة «طلب العلم» وأن يكون العلم مطلبنا. وأن نبحث عن الحقيقة ولو في الصين... فالإنسان الراغب في المعرفة والساعي إلى المعرفة والقادر على التعلّم الجديد هو اللبنة الأساسية لتكوين مستقبلنا.

يجب أن يهتم المسؤولون عن التعليم (النسق التعليمي في تكامله) أيضاً بتخصيص جزء هام من كل الدراسات في كل مراحل التعليم للعلوم الطبيعية والحيوية والرياضيات. نحن نتكلّم عن عصر العلم والتقانة، أي عن علوم تسمّى العلوم الصلبة، لأن العلوم الاجتماعية تسمى العلوم اللينة. فهذه العلوم الصلبة هي الأساس للحياة في الحاضر وفي المستقبل. وكلما زادت القاعدة من المتخصصين فيها زادت امكانات بناء قاعدة عربية للعلم والتقانة. فضلاً عن أن انتشار هذه الثقافة المبنية على أعمال العقل والمنطق الدقيق سيساعد على مواجهة اللاعقلانية التي تجتاح الوطن العربي حالياً. من المهم أيضاً في هذا الصدد أن نسعى إلى تحرير العلوم الاجتماعية من قيود السلطة والتمذهب. فالعلوم الاجتماعية تمسّ المجتمع، تمسّ الناس، تمس السياسة، تمس السلطة. ومن المشين أن تتدخل أحزاب سياسية أو حكومات أو اتجاهات محددة في أن تشكّل ما يدرسه الانسان في علم الاجتماع أو علم الاقتصاد أو في علم الانسان. هذه العلوم تقدمت وأصبحت لها قواعد ويجب أن تدرس هذه القواعد دراسة كافية ونقدية أيضاً حتى نستطيع أن نغنيها وأن نضيف إليها. ولكن لا نلغيها بتعبيرات الخطاب السياسي الغنية بالشعارات الفقيرة في المدلولات.

كذلك لا بد أن يتخذ المجتمع المدني دوره في حركة النهضة، وأن نستأنف النشاط العلمي المستقل: تنشيط الممارسة في الجمعيات العلمية القائمة، والتشجيع على نشأة المزيد منها. فهذه الجمعيات تمتاز عن الجامعات في أنها غير مرتبطة بالجزاء المادي لمن يقدّم البحث. فليست وسيلة للترقية الوظيفية أو لشيء من هذا النوع. ولكنها أدوات تعارف بين المشتغلين بالعلم وتبادل المعرفة وتبادل الخبرات والتواصل عبر الوطن العربي كله. عندئذ يجب أن نضغط من خلال الرأي العام على ضرورة أن تتيح الدولة والشركات والمشروعات الفرصة الكافية للطاقات العلمية والتقانية العربية لكي تمارس أعمال الخبرة فتزيد خبرة وتتقدم علمياً. فالطاقة البحثية إذا تصورنا أنها الأفراد، فإنه إذا لم توفّر لهم وسائل البحث العلمي والاستمرار فيه سيعجزون عن متابعة ما يحدث وما يتجدّد في العلم. والأخطر من ذلك أن البحث نشاط مستمر، ومن يتوقّف عن ممارسته ينسى حتى ما تعلّمه في صباه. وإذا كنا نريد مجتمعاً حديثاً فيجب، بالتعبير الاقتصادي، خلق وتنمية الطلب الاجتماعي على المنتج المسمّى **البحث العلمي والتقانة**. يجب أن يكون للخبرة المتاحة في مواقع الانتاج والخدمات وللباحثين في الجامعات ومراكز البحث القدر الكافي من التواصل حتى تتكون جماعة علمية تقانية. لأن العلم والعقلية العلمية ينتشران بالتواصل وبالخبرة وبالتعاون. فالمعرفة ظاهرة تراكمية. وكلما اتسعت الفرص لاكتساب معلومات جديدة أو لاكتساب خبرات عملية جديدة زاد وزن القاعدة العلمية والتقانية التي لا غنى عنها للنهضة الحديثة.

كذلك يجب أن تتكاتف الجهود لخلق وتنشيط عملية ترجمة مكثفة ومستمرة ودؤوبة للمؤلفات العلمية في العلوم الطبيعية والرياضية بصفة خاصة. لا أستطيع أن أفترض في الباحث العربي القدرة على شراء الكتب الحديثة التي ارتفعت أسعارها كثيراً، ولا أفترض أيضاً فيه تملُّك اللغات التي تصدر بها هذه الكتب. فلا بد إذن من حركة ترجمة. والناس يتحدثون كثيراً عن اليابان، وأول ما صدمني في اليابان، قلة من يتكلمون اللغة الانكليزية، مع أنهم علماء عالميون ومتصلون بكل ما يحدث في العلم. والسر في ذلك هو حركة الترجمة السريعة والمنتظمة والدؤوبة التي لا يُدخَّر في سبيلها أي مال. فالكتب العلمية باللغة العربية هي المدخل الحقيقي لتعريب الدراسة في بعض الكليات الجامعية مثل الطب أو غيرها، مما يثار حوله النقاش من فترة إلى أخرى. فهذا النقاش فاسد في لغة الفقه الاسلامي، لأن الوسيلة غير متاحة. فإذا أردت أن تعرّب التعليم فيجب أولاً أن

تعرّب كتب الطب هذه هي القضية الأساسية. فإذا أتيحت المؤلفات الأساسية والحديثة باللغة العربية، سيدرس الناس باللغة العربية وسيكون هذا أمراً طبيعياً، كما حدث في اليابان. فحركة الترجمة في بلادنا اتصفت في فترة الاستقلال بالتركيز على الآداب والعلوم الاجتماعية وليس بالتركيز على العلوم الطبيعية، مع أنه من المعلومات الهامة أن دارون تُرجم إلى العربية سنة ١٩٠٨ في القاهرة. ولم تعترض أي جهة دينية على نشره. وكان لغير أسرة لَبنانية الأصل الفضل في ظهور مجلة «المقتطف»، التي كان توجهها الأساسي العلوم الطبيعية وليس العلوم الاجتماعية أو الأدب. فقد كانت مجلة للثقافة العلمية. وعاشت عدة عقود، وكان لها قراء وانتشرت فيها الآراء. وكتب فيها لأول مرة في أوائل القرن عمّا سمّي في ما بعد الاشتراكية. وكان الدكتور محمود عزمي أحد مؤسسي أول حزب اشتراكي في مصر، ترجم سوسياليزم إلى الاشتراكية. إذن، فنحن في حاجة شديدة لكي نعايش هذا العلم، أن نقرأ هذا العلم بدلاً من أن نسمع عنه بشكل دقيق أو غير دقيق في وسائل الاعلام. وعلينا أن نبذل في هذا كل الجهد لأنه من دون هذا لا تنتشر ثقافة علمية ومن دون ثقافة علمية لا نهضة حقيقية. والغريب أن أسلافنا في عصر الازدهار العربي، حين اتصلوا بالثقافة اليونانية، لم يترجموا الأوديسة أو الألياذة، ولكن ترجموا الفلسفة وترجموا «الطب» والفيزيقا والموسيقى كعلم رياضة ألّف فيه الفلاسفة العرب. فأخذوا، إذن، ما كانوا في حاجة إليه وركزوا عليه. ولنا أن نأخذ هذا المثل ونولي قضية الترجمة العلمية اهتماماً خاصاً وكبيراً. وقد ذاعت كتب التبسيط العلمي أيضاً، وهي كثيرة باللغات الأجنبية، ووجدت مجلات للثقافة العلمية. لأن افتقاد العلم معناه أننا نعيش دون عقل. فالعقل مكان للتفكير، إما أن نعلّمه فيفرز علماً وإما أن نهمله فيفرز أوهاماً وتخيلات. ونحن كبشر نتساوى في هذا. لا يوجد تميّز عنصري بأن عناصر بشرية لها دون الآخرين قدرات معيّنة على العلم، هذا التمركز الأوروبي حول الذات مرفوض. وليس الفقر سبباً في اهمال العلم والتعليم. فالهند الفقيرة صنعت قمراً صناعياً، أما نحن فقد اشترينا قمراً صناعياً أسميناه عربسات ولا نعرف عنه شيئاً. والهند لديها الطاقات والمعرفة العلمية للسيطرة على الطاقة النووية وقد أنشأت محطات توليد كهرباء نووية ولم تنتج قنبلة نووية رغم محاولات باكستان في هذا المجال. لأنها رأت أن ذلك تبديد للموارد وأن الأولى هو الاهتمام بمشروعات يمكن أن تحدّ من الفقر في هذه البلاد الشاسعة المكتظة بالسكان.

من مقومات النهضة تشجيع الدراسة العلمية العصرية لتاريخ العرب الحضاري وفقاً لمناهج العلم الحديث. هذا المجهود ظهر في فترة النهضة العربية الأولى، ولكنه لم يستمر. وحتى الآن، في دراسة التاريخ الاسلامي في الجامعات العربية، ما زالت أهم المراجع كتب أوروبية عن تاريخنا نحن. وعدد المؤرخين العرب الذين قرأوا ودرسوا مؤلفات المؤرخين العرب القدامى محدود للغاية. وسأضرب مثلاً واحداً على هذا. فنحن كلنا في هذا العصر نتحدث عن أيام الحروب الصليبية، والعرب الذين عاصروا هذه الحروب لم يسموها إطلاقاً الحروب الصليبية، بل سمّوها غزوات الفرنجة. أما الذين أسموها حروباً صليبية فهم الأوروبيون الذين فعلوا ذلك لكي يبرروا الغزو برفع الصليب. ولم ينخدع العرب بهذا الصليب، ولم يسمّوا هذا غزواً صليبياً إنما أسموه غزواً فرنجياً لأنه كان بينهم مسيحيون عرب، وكان بجوارهم الروم ومسيحيون آخرون: الأرمن والأشوريون والكلدانيون، وكان من غير الوارد على العقل العربي أن يُعطى هؤلاء الغزاة احتكار الصليب. إنما يتكلمون عن غزو الفرنجة. هذه الكلمة مستوحاة من الأصل الأوروبي للقبائل الجرمانية الشهيرة التي ما زالت فرنسا تحمل اسمها حتى الآن.

فإلى هذا الحد، نحن نتكلم على تاريخنا من مراجع أخرى، ولم ندرسه الدراسة الكافية.

ودون دراسة هذا التاريخ بوسائلنا العصرية وبالتركيز على التاريخ الحضاري وليس على دول الملوك والأسر ولا على الغزوات، وإنما على التطورات الحضارية لهذا المجتمع، سيظل أساس من كينونتنا يشوبه الغموض ونتركه لمن يريد أن يستغله سياسياً. هذا نقص شديد في حياتنا الفكرية، وهو عدم درايتنا الكافية بما حدث في الألف سنة الأخيرة على الأقل، إذا اعتبرنا القرون الأربعة الأولى قرون مجد. فماذا حدث بعد هذا المجد؟ نحن نتكلم أحياناً عن الخلافة. فنحن ننسى واقع أنه بعد عصر الخليفة المعتصم، أصبح الخليفة سجيناً للأتراك وأن السلطة في دولة الخلافة كانت في أيدي الأتراك. وأن العرب فقدوا السلطة على دولتهم. هذا الأمر واقع ومعروف ولكنه من الأمور التي تُنسى. لأننا نجد قائمة الخلفاء كما وردت في أي مرجع ونعتبر أن كل هذا كان خلافة. وإذا درسنا تاريخنا الدراسة العصرية الحديثة، فسنعرف كيف ازدهر العرب وسنعرف أيضاً لماذا اضمحل شأنهم وما هي الأسباب التي وقفت وراء النهوض وأي العوامل ساعدت على التراجع ونستطيع عندئذ التعرف إلى تراثنا لا بنفيه جملة وتفصيلاً. ولا بتمجيده جملة وتفصيلاً. وإنما باستنباط عوامل القوة من فترات التقدم والتنبّه لعوامل التخلّف لوضع حد للتخلّف.

الأمر الأخير في هذا التعداد القصير غير الشامل بالضرورة، هو أن علينا في مجال العلوم الاجتماعية تركيز اهتمام كبير على دراسة الواقع المعيشي لفئات المجتمع المختلفة وألا نقنع بمقولات نظرية عامة ولا بأي تصنيف مبنيّ على نظرية ما من عالم اجتماع أو فيلسوف أو غيره. وأن نعرف بالدقة كيف يعيش المواطن العربي في مختلف مواقعه وماذا يشغل باله؟ وما هي مشاكله؟ وكيف نجعله يتطلع إلى من أوتوا العلم من أبناء جلدته لكي يلتمس لديهم الحلول لمشاكله. وما لم تُعْطَ هذه الدراسات الواقعية حقها رغم كل الصعوبات التي تحيط بها ـ وأنا أعرف هذه الصعوبات ـ سنبقى نناقش بعضنا بعضاً على فروض نظرية أو مقولات مجردة. وبالمنهج الامبريقي والدراسة الواقعية نستطيع أن نتكلم عن مشاكل حقيقية وقضايا واقعية وأمور تعني الناس، فيتقبل الناس بالتالي ما يمكن أن نصل إليه من أفكار واقتراحات وينمو رأي عام حول الاتجاهات النهضوية. وأنا من المؤمنين بأن الرأي العام له وزنه حتى في ظل أقبح ديكتاتورية ممكنة. والمشكلة كيف يتعامل الديكتاتور مع الرأي العام، ولكنه لا يستطيع الغاءه. وتوجد على ذلك أمثلة حديثة وقريبة، مثل السادات عندما عقد صلحاً مع اسرائيل تضمّن ركناً أساسياً اسمه التطبيع. والشعب المصري رفض التطبيع ولم يملك السادات ولا غيره أن يفرض ذلك عليه. فإذا نجحنا في أن نجعل القضايا الأساسية للنهضة ولتوحيد الأمة ولمستقبلها تستقر في الوجدان بهذا المستوى البسيط والواضح الذي يستدعي رد فعل مباشراً عند المواطن دون أن نحتاج إلى وعظ وإلى ارشاد وخطب حماسية، نكون عملنا بالفعل على النهوض بالمجتمع العربي. والأمة العربية ننظر إليها في النهاية على أنها يمكن أن تكون احدى القوى الرئيسية في العالم بناء على عدد البشر الذين يكوّنونها، وأنا أقول البشر وليس النفط، فالنفط زائل. العرب مهمون لأنهم لو اجتمعوا يشكّلون سوقاً حجمها ١٦٠ مليون نسمة أو أكثر. وهذا أمر له وزنه الاقتصادي على مستوى العالم. ودراستنا العالم الثالث كله أثبتت أن الدول كبيرة الحجم كثيرة السكان وجدت فرصاً للتقدم أكثر من الدول الصغيرة. أهم النجاحات تمّت في الدول النامية، ليس بالطبع النمور الأربعة ولكن الدولتان المؤهلتان قبل غيرهما لدخول القرن الحادي والعشرين في العالم الثالث كله هما البرازيل والهند. ومن هنا يجب أن نؤكد أن وحدة الأمة ليست حنيناً إلى الماضي ولا شعوراً عاطفياً بالأخوّة بيننا، فمن الوارد أن تكون هذه المشاعر موجودة، ومع ذلك نظل منقسمين بين أقطار عدة. والأمر الآن هو أننا إذا لم نتعاون ونتضامن ونشكّل هذه السوق الواحدة، فلا أمل في تنمية مطّردة في أي قطر عربي على حدة. فمشكلة القومية العربية أنها يجب أن تخفف الكلام عن ماضيها، وأن نتطرّق إلى أنها مستقبلنا.

إما موحَّدون وإما لا شيء أو مصير الصومال حيث يقتل المواطنون بعضهم بعضاً دون خلاف في الدم أو اللغة أو الدين، ويكاد العالم الخارجي لا يعيرهم التفاتاً.

المحافظة على بقاء هذه الشعوب في مجموعها، وهذه الأمة، مرتبطة بالتعاون العلمي والتعاون الاقتصادي والتكامل وإنشاء الأسواق المشتركة... الخ. هذا أيضاً لا يكفي أن نقوله أو لا يكفي أن يسجَّل لأن هناك في الواقع قوى موضوعية تعمل في اتجاه غير هذا، ولكن علينا أن نفكّر ونجتهد ونبحث ونخترع في أشكال التعاون وصوره. ولا يجدي محاولة تكرار نموذج السوق الأوروبية المشتركة، لأن الخلفية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والحضارية والثقافية في أوروبا كانت مختلفة عن تلك التي نبدأ بها الآن. وليس هناك أي دليل على أن ما نجح في أوروبا يمكن أن ينجح في البلدان العربية. والمثل على ذلك بسيط. في سنة ١٩٦٤، تم توقيع معاهدة لإنشاء سوق عربية مشتركة، وانتهى الأمر بالتوقيع على المعاهدة، فحسب. فالمفروض أن المعاهدة تبدأ عهداً جديداً، لأن مقومات هذه السوق: القوى الاجتماعية صاحبة المصلحة في بنائها والأشكال المحددة والملموسة التي تدفع في هذا الطريق لم يتناولها أحد بالبحث الكافي. ولا قدَّم فيها الحلول الجديدة والملائمة والمبتدعة التي تشجع على التحوّل من مشاعر ورغبات إلى حقائق وموجودات.

وفي الختام أقول إن مفهوم النهضة لا يمكن أن يكون مفهوماً قطرياً، لأن الأمة العربية إما أن تنهض كلها وإما لا نهضة. وفي أوروبا، رغم تقسيمها القديم إلى دول، فإن النهضة كانت ظاهرة أوروبية كاملة شملت أوروبا كلها. إذن، لا بد من إعطاء مدخل النهضة العربية خطاباً مباشراً إلى الأمة العربية في جميع أقطارها وفي كل المواقع التي يوجد فيها المواطن العربي لأنها لا تحلّ إلا في هذا الاطار القومي. يمكن أن تبدأ بدايات في بعض المواقع، وأن تظهر توجهات تختلف وتنتشر، هذا وارد. لكن الأمر في مجموعه لا يمكن أن يتحقق إلا في اطار عربي شامل. لأن النهضة ظاهرة حضارية، والعروبة حضارة قبل أن تكون أي شيء آخر. لسنا تكويناً عرقياً. ولسنا أمة واحدة ذات رسالة خالدة. وهذا من فضل الاسلام على العرب نتيجة تزاوج وتداخل عناصر جاءت من أرجاء الأرض كافة وأصبحت عرباً وعاشت معنا واستعربت - والعرب هم الناطقون باللغة العربية -. حين يثار الحديث معي عن ابن سينا، هل أصله أزبكستاني أو ايراني أو عربي فجوابي بسيط: هذا الرجل كان يعرف اللغات التالية اليونانية والفارسية والتركية والعربية، وقد اختار لنفسه أن يكتب باللغة العربية فهو عربي. بعده بقليل ظهر عمر الخيام وكان يعرف هذه اللغات. واختار لنفسه أن يكتب باللغة الفارسية فهو شاعر فارسي. النهضة حضارة عربية لأن صلتنا بعضنا ببعض ليست صلة عرقية بل هي صلة حضارية، والنهضة ظاهرة حضارية، وبالتالي يجب أن يكون الشغل الشاغل لمجموع من ينتمون إلى هذه الحضارة ويريدون لها أن تجدد شبابها.

هذا المسعى يقتضي اشاعة الديمقراطية في المجتمع وتوفير حرية البحث العلمي والابداع الفني والترحيب باختلاف الرأي. نحن نخشى الاختلاف في الرأي وصراع الأفكار. وهذا خطأ لأن كل تقدم هو ثمرة لخلاف، ولا بد من تنشيط مؤسسات المجتمع المدني وتوفير الشفافية في ما يتعلق بالبيانات والمعلومات والقرارات. كل هذا ضروري، ولكن كل ما أريد أن أنبّه إليه هو أنه لن تحدث هذه الظروف الديمقراطية تلقائياً أو لأسباب أخرى ثم تبدأ النهضة بعدها، ولكن المسعى مشترك، نحن نسعى إلى النهضة، وجزء من النهضة هو وجود الديمقراطية. ووجود الديمقراطية أمر يساعد على النهضة، وأنه لا يجوز أن نفترض أو أن نسلك مسلكاً يوحي بأن ما لا يُدرك كله يُترك كله. لن نستيقظ في يوم من الأيام فنرى الوطن العربي ديمقراطياً من المحيط إلى الخليج. التحوّل الديمقراطي عملية تاريخية وفيه مدّ وجزر، وفيه اجراءات اصلاحية واجراءات جذرية. ويجب أن

نعوِّد أنفسنا على التعامل مع هذه العملية التاريخية وأن نكون فاعلين فيها لكي ندفعها إلى الأمام، لأنه لا يوجد باستمرار.

النهضة أيضاً لا تصدر بقرار ولا تتم بين يوم وليلة، ولكنها نضال وعمل دؤوب. لنضع أيدينا من ناحية على التراث مخلِّصاً من الماضوية، ومن ناحية ثانية على المد الديمقراطي، ونزاوج بين المسعيين ونناضل من أجل هذا، وأن نلتفت بعضنا إلى بعض كأفراد عرب لهم اهتمامات ويمكن أن يتواصلوا وليس بالضرورة من خلال النظم والحكومات. لو علّقنا على الحكومات ما لا تطيق فلا تنفيذ، ولكن كلما كان بالإمكان فتح ثغرة ومسلك لتعاون على المستوى العلمي والفلسفي، وعلى مستوى أعمال الترجمة ونشاط الجمعيات العلمية، وليس الاتحادات المهنية فحسب يجب استثمار ذلك، وبهذا يكون الحرص على التواصل والتعاون العربي في هذه المساعي، وتعارف الباحثين بعضهم ببعض، وهذا ليس غريباً فأنا أذكر أنه حين أنشىء مجمع اللغة العربية في القاهرة سنة ١٩٣٠ وكان مكوناً من ٣٠ عضواً، كان عشرة من أعضائه غير مصريين، معظمهم من البلدان العربية الأخرى. الآن، أبسط شيء كان يمكن تصوره ومع ذلك لا يلقى اهتماماً من أحد، اللغة هي الرابطة الأساسية بيننا، ومع ذلك لا يوجد على المستوى القومي مجمع واحد للغة العربية. كيف يمكن أن تشتغل سبعة مجامع لغوية مختلفة لتبسيط وتطوير لغة واحدة، لأننا لم نأخذ الموقف النهضوي الحقيقي الذي يريد بالفعل خدمة اللغة العربية، وأن المجمع ليس مجرد فقهاء وعلماء كبار، ولكن تتبعه بحوث في علم الصوتيات واللغويات والدلالات... الخ. ولكن كان من مآسي الاستقلال السياسي الصراع على كل شيء حتى على المكان الذي كان من الممكن أن يوجد فيه مجمع واحد للغة العربية □

صدر حديثاً

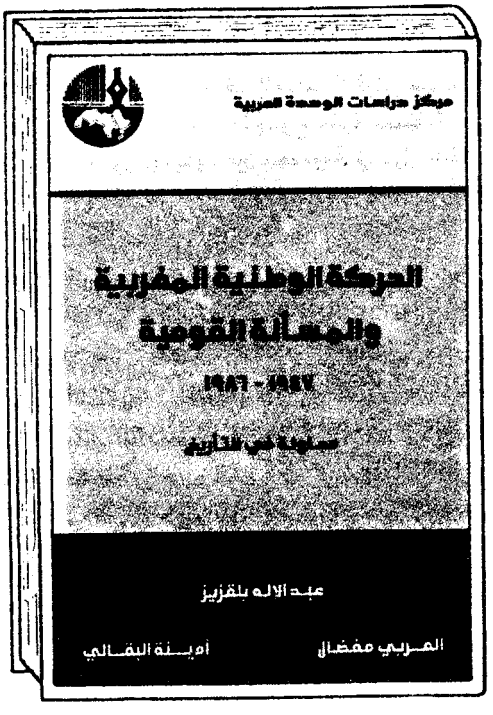

الحركة الوطنية المغربية والمسألة القومية ١٩٤٧ - ١٩٨٦

محاولة في التاريخ

عبد الإلة بلقزيز

العربي مفضال اميـنة البقالي